العُودُ المسْحُور

قصة جديدة بقلم وداد سكاكيني

كلما جلس الشيخ يوسف ،ناطور البستان،تحت شجرته الظليلة أطرق طويلاً وأخذه الدهش اذ صار يسمع منها في بعض الضحوات والعشايا أنغاماً مبهمة ؛ فاذا مرت الرياح ازداد النغم مع حفيف الاوراق ، وكاد يخيل اليه أن هذه البقعة من الارض التي فيها الشجرة تختلف عن غيرها بما ينساب الى سمعه منها ، ولقد تحير الشيخ يوسف في أمر هذه الشجرة المغنّية، فان تناغيمها كانت تنبعث رخيمة هادئة أشبه بالهديل حين يكون بعيداً عنها ، فاذا اقترب منها أخذ الصوت يتخافت ويضؤل ثم يختفي بوصوله اليها .

لقد سمي ناطور البستان هذا شيخاً لتقشفه وزهده ولم يكن طاعناً في السن او ذا عمامة واعتكاف للعبادة ، على انه منذ اتخذ ظل الشجرة مضجعاً له ومراحاً ، كان يبدو ذاهلاً سادراً ؛ فيتساءل بينه وبين نفسه عن سر هذا الصوت الذي ينطلق منها ولولا شجاعته التي يتحدث عنها في تلك البقاع لأوشك ان يتسرب اليه الخوف ؛ غير انه غالب الحسبان والرجفان حتى غاب تساؤله على مر الايام تفادياً للارتياب في صحة حسه وسمعه .

كان الشيخ يوسف يضطجع تحت شجرته الوارفة في اشهر الصيف فلا يسمع من أنغامها شيئاً ، لكنه حين يغلبه النعاس او الاعياء تترامى اليه في سهوته أو منامه رناتها ويهدهده تغريدها فيصحو مرتعشاً وهو يفرك عينيه ويهمهم ،ثم يقلب شفتيه من العجب . وكاد يصيب الشيخ الخبال اذ تولع بما يحس ويسمع ، وعابه صحبه وجيرانه وجومه واطراقه وتحدثه مع نفسه همهمة وهمساً فقالوا انه موسوس او معتوه ، وكان ذهوله وشروده يساعدان المتقولين والمستهزئين، فاذا جاء بيت صاحب البستان حاملاً اليه بعض الثمار جلس في الدهليز مطرقاً مدندناً ، فيسارع اليه الخدم لمعابثته ومجاذبته الكلام ، وتلمحه فتحية صاحب البستان وكانت في مطل صباها فتقبل عليه مشفقة مترفقة ، مطأبطة لفافة فيها طعام او حلواء ، فيتلقاها الشيخ بابتسامة شكر وابتهالة دعاء الى الله بأن يحفظها من كل سوء ، ثم يأخذ بدعوتها الى البستان حيث ترى الشجرة المغنية ، فتسأله عنها ويقص عليها قصتها، فاذا ذهب من عندها تعلقت بامها والحت عليها بأن ترافقها الى البستان .

وازداد ولع الشيخ بشجرته فكان دؤوباً على قصتها لا يعنيه في دنياه سواها ولا يعبأ بلوم او تهكم من اجلها ، وما كانت دنياه لتغريه بشيء او تزين له امراً ، فهو ذو زهادة مربعة وان صح التعبير الرياضي قلت إنها مكعبة، فإن القوت اليومي للشيخ يوسف كان لا يتجاوز الرغيف الاسمر الجاف يبله بالماء ثم يتبلغ بقسم منه كلما ادركه الجوع مع قليل من البصل او الفجل الا ذهب لبيت صاحب البستان فإن قوته يومذاك يتغير .

ولقد شاقتني هذه الاعجوبة التي سمعت خبرها من فتحية ، فلما لقيت الشيخ ذات يوم عند باب البستان لم اجد بداً من سؤاله عن شجرته :

— أيكون في شجرتك يا عمي الشيخ عندليب يغرد فاذا سعيت اليها طار ؟

فأجاب وهو يرمي بنظرة شطر الشجرة:

— لا ، لا . . الصوت يأتيني وكأنه ترتيل او هديل ، لكنني اسمعه انغاماً غير واضحة. ثم تنهد الشيخ يوسف وسكت، فعدت الى الاستفهام وانا اترضاه وأغريه بالكلام اذ كان به ضنيناً ، الا على من يركن لهم ، فلما عاد الى نفسه سألته :

—هل سمعُك صحيح ،او انك اصبت باحدى اذنيك؟

فضحك مستهزئاً مغمغماً، ثم قطب حاجبيه، فزادت جبهته تجاعيد ، وغارت عيناه وهو يجيب متحدياً بنبرة حادة :

— اسمع مشي النمل . . . واذا شئت البرهان فناديني بصوت خافت لتجربي سمعي . .

وسار الشيخ خطوات فقلت له :

— كفى يا عم . . قف ولا تبعد اكثر .

فلم يقف، بل تابع خطاه وحالت بيني وبينه اشواك مرتفعة وخمائل متهدلة الغصون فناديته :

— يا عمي الشيخ يوسف . . .

وكان صوتي خافتاً لا يكاد يسمعه الا القريب مني ، وما راعني الا انه اجاب بصوت جهير :

— نعم ، ماذا تريدين ؟

— هل تسمعني حقاً ؟ وما هو طعامك اليوم ؟

— اسمعك جيداً وطعامي اليومي تعرفينه .

فسارعت الى الشيخ مبهوتة محملقة ، واذا به يمسك بيدي ويشير الي بالصمت والاصغاء وقد بدا كالسادر المذعور ، ثم الوى برأسه واشار باصبعه ومشى خطوات وهو يقول همساً :

— اسمعي ، اسمعي جيداً ، انها تغني .

فدرت بوجهي نحو الشجرة القريبة وانصت فوجدت الريح

تداعب اغصانها ،وورقها يلمع في الشمس بخضرته ويهتز. كان هبوب الريح يعطي الاشجار لحناً مؤتلفاً هو الحفيف الصافر، اما النغم الموهوم فلم اسمع منه شيئاً. كنت اصغي وافكر، وكان ينصت ذاهلاً شارداً ، وكأنه نشوان اومخبول .

ووجدتني اذ ذاك منساقة مع القائلين بان الشيخ موسوس او تعناه وهم . كان طبيعياً مثل كل من كان في سنه لكنه اذا خلا الى نفسه، وحياته كلها غدت خلوة وعزلة ، بدا كالمجذوب المرتبط بالغيب .

وكانت فتحية بنت صاحب البستان تغدو معنا للنزهة في بستانهم الجميل ، وكان النهر عن يمينه والطريق المعبد عن شماله. اشتراه ابوها بثمن بخس لأن صاحبه الاول استغنى عنه وهاجر بزوجته واولاده ، وبقي الشيخ يوسف ناطوراً لهذا البستان لم يستبدل به ابو فتحية بستاناً آخر لأنه كان مشهوداً له بالاخلاص والأمانة فاذا رأت فتحية هذا الشيخ الزاهد المتوحد، اخذتها الرأفة به وأبت ان تسمع اي هزء به، بل امضها التقول عليه والتهكم ، ودلفت اليه تستزيده من قصة الشجرة مأخوذة بهذه الاعجوبة ، ومات الشيخ يوسف بعد سنين مأسوفاً عليه ولم يترك ذرية ، فقد وهب حياته للارض التي احبها ، وللشجرة التي تعلقها في آخر عمره ، وكانت كل بقعة من البستان بنتاً له او اختاً ، وكل شجرة واحدة من اهله .

أحب الشيخ يوسف الأشجار والأزهار حباً عجيباً ، ومزج نفسه بالأرض حانياً عليها منقياً وجهها من الحجارة والقذارة ، وكان لأكثر الأشجار ذكرى مواليد عنده ، فبيديه زرع طائفة منها ، غير ان تلك الشجرة الناغمة الظليلة كانت محبوبته الغالية، ومن أجلها كان يكرم الأشجار بعنايته المعهودة، وكان هو وحده يحس هذا الحب الخفي القوي الذي سعد به حيناً وشقي حيناً راضياً حيران .ومما أثار العجب ان تجف عروق الشجرة بعد وفاة الشيخ يوسف وتسقط أوراقها ، ولم يمض عامان حتى يبست ولم يطق رؤيتها صاحب البستان فأمر باقتلاعها وبيعها ، وكان دهشاً حين قطع الجذع وظهر البدن أبيض اللون مورداً ، فغلا في الثمن ، وحملت الى بيته بقايا الجذع والغصون ، لتكون من مئونة الشتاء .

وقد أسفت فتحية على الشيخ وشجرته ، وكانت تحدثني عنهما وهي مرتعشة باكية فقلت لها :

— ماذا أصابك يا فتحية ، هوني عليك ؟

فقالت وهي تنساب في الذكرى وكأنها تتحدث عن عزيز لديها مات واحترق جسمه بعد موته :

— كنا كلما ألقينا قطعة من تلك العيدان اشتعلت بسرعة في الموقد ، وسمع لها نغم أشبه بذلك النغم الذي كان يصفه الشيخ يوسف وهو يتحدث عن شجرته .

واغتربتُ فانقطعت عني اخبار فتحية ، لكني علمت من بعيد أنها تعلمت الموسيقى وفضلت الفن على الزواج ، فلما عدت الى الوطن رأيتني ذات ضحوة في بيت فتحية ، فمنذ دخلت قاعة الدار سمعت دندنة عود فتساءلت في نفسي :

— تُرى ، ممن هذه النقرات الرائعة على العود ؟ هل تكون فتحية ...

وتحقق تخميني ، لقد اقبلت فتحية وبيدها عودها ، فلما رأتني وضعته جانباً وجلسنا نتبادل الذكريات والأشواق ، ثم رجوت منها ان تسمعني ضربها على العود ، فأخذته في حضنها برفق وحنان وجعلت تداعب بريشتها أوتاره ثم تضرب ضربات تهز الجوانح .

كانت الريشة بيدها أخف من لمح البصر ، وكانت أناملها باليد الثانية على عنق العود تلعب لعبات سريعة اخاذة ، ولما انتهى اللحن الطروب ضمت عودها الى صدرها وكأنها تخشى عليه الفراق ، ثم اعتراها ذهول أخرجها عن طورها فقلت لها :

— ماذا أصابك يا فتحية ؟

قالت وهي تتأوه :

— العود ...

— وما شأن العود ، قولي ما الذي خطر ببالك الآن ؟

فانفرجت شفتا فتحية عن ابتسامة فاترة ثم مدت يدها الى عودها وقالت :

— انه يغني وهو صامت على المتكأ والريشة مغروزة بعنقه، أسمعُ له همهمة وكأني حالمة او هائمة في شيء غائب او مجهول ، وأسمعه وانا نائمة حقاً ، فاذا استيقظت كنت كالمشدوهة الشاردة، احس هذا في اعماقي كالصدى البعيد .

ودمعت عينا فتحية وعاودها الرجفان والذهول ، ولما اخرجتها من هذا الكمد سألتها :

— من اين اشتريت هذا العود ؟

— من جوزة الحدباء بدمشق ، من عند المعلم فارس العواد المشهور .

فاتصل خاطري من فوري بقصة الشجرة التي كانت شاغل الشيخ يوسف وجعلت أتساءل في نفسي عن الشبه بين سرها وسر العود ، ولم يكن لي مقصد بعد ترك فتحية الا لقاء معلم العود الذي دلتني عليه ، غير ان بعض المشاغل صرفتني عنه وبقي بالي عند فتحية الى ان وجدتني ذات يوم وجهاً لوجه امام حاتمة القصة.

رأيت العوّاد بباب دكانه يتحدث مع قريب لي فداورت وجاملت على غير طبعي حتى عرف اني صديقة لفتحية وجارة لها

قديمة، فحدثني فشأنها ويا روعة ما سمعت! فقد علمت منه انه علمها العود حتى أتقنت الضرب عليه وفاق فنها صوتها إذ أوتيت حذقاً بالموسيقى وملكت القيادمن رنات الأوتار دون تغريد الحنجرة.

قال العواد : منذ صنعت لها العود الذي احبته وفضلته على الزواج تغيرت حياتها وكأنها خلقت خلقاً جديداً ، فزهدت في الزينة واهملت العناية بثيابها وشعرها واخذ يغيب جمالها الذي تعرفينه ، وصار يعتريها بعد حين ذهول وشرود ، وكان مثل هذا الذهول والشرود يمس شعوري وانا أنجر العود من خشبة لم أر لها مثيلاً في صناعتي ، كنت اصنع الأعواد من خشب الدردار ، لكني لقيت ذات يوم عند جاري صانع الأمشاط شاباً يعرض عليه قطعة من الخشب وهو مزهو بها وضنين .

كانت في الليل تلمع على بصيص النور وكأن فيها الفسفور، وكان الشاب كلما غلا في الثمن ازددنا رغبة فيها حتى اشتريناها واقتسمناها . وصنعت من حصتي عود فتحية واختصصتها به لما رأيت من نبوغها في الفن ، وقد فرحت به فتحية ونسيت نفسها فيه ، ثم شكت إلي بعد شهور انها تحس وهي تضرب عليه كأن في صداه عزيف الجن ، فقلت لها هذا وهم تحسينه من شدة تعلقك بالفن فلم يعجبها قولي وانصرفت غير راضية ولا مقتنعة، وعلمت بعد حين ان شيئاً من الهوس قد اصابها فهي تزعم لأهلها انها تسمع من عودها ألحاناً وهو ساكت ، وكانت تراه في منامها متبسماً لها من صفحة وجهه وخصاصه وان اوتاره كانت تهتز وحدها في احلامها فتهب طربة منجذبة ولا تلبث بعد قليل ان تحس فراغ روحها كما يحس السكير بين صحوتين فتعود الى العود منساقة بغريزة الفن والهيام فيه إن كان للفن غريزة .

ورأى اهلها ان يصرفوها عن عودها بالزواج ، طوعاً او كرهاً ، فقطعت كلام العواد وسألته :

— وهل رضيت ؟

فأجابني :

— إصبري ، انا آتيك بالكلام ، اختار لها اهلها زوجاً غنياً مولعاً بالسياحة والسفر ولا يفهم للفن معنى ، أطمعوها به وزينوا لها لذة الرحلة والتنقل لعلها تهجر العود وتتعلق بالجديد المجهول . تزوجت وكانت في الاشهر الاولى سعيدة راضية ، وبعد سنتين ارتدت الى عودها حتى كأنها كانت له عاشقة مفارقة ، فضاق بها زوجها وجعل ينغص عليها هذا الولع بالاتهام والتهديد ، على اني منذ زوجوها قلت قتلوها . . .

فهالني ما سمعت من العواد ، وطاف بي شرود ردني الى صور كانت تلوح لفكري حتى ذكرت آخر مرة لقيت فيها فتحية مفتونة بعودها فقلت : مسكينة . .

فقال العواد :

— اسمعي ، لما ضج زوجها وكره عودها إذ وجده منافساً له وغريماً ومفسداً لحياتها طغى عليه الغضب فأمسك بالعود وخبطه في الأرض ثم داس قطعه المكسورة . منذ ذلك اليوم انتهت فتحية وهددت بالانتحار ان لم يطلقوها ، فسرحها الزوج غير آسف ولا نادم ، وهي اليوم تعيش ذاهلة مخبولة ، ذهبت زهوة صباها وذوى جمالها وشاب شعرها وهي ما تزال في ريعان الشباب ، ولاحت في وجهها الوحشة واهملت العود ونسيت حتى اللحون . . لقد غدت امرأة مسلوبة اللب محترقة القلب ، لا ترضى بالقليل من الطعام الا غصباً وكرهاً ، فهي تذوب يوماً بعد يوم مثل شمعة تحترق في الظلام .

★

وسافرت الى مصر دون ان القى فتحية فان قلبي لم يطاوعني على ان اراها ولكنها لم تغب عن بالي ، وكنت اعجب لذلك العود الذي غير حياتها وأشقاها ، وبينما كنت اطالع صحفاً سورية وانا بضفاف النيل جمد نظري على خبر واحد قفّ له شعري وأحسست كأن عروقي وقف فيها الدم . كان الخبر يقول : « أمسكت الشرطة بالمجرم المختفي الذي وقعت عليه التهمة في مقتل المطربة « نوال » تلك الفنانة التي وهبت صباها وجمالها للفن وكانت اعجوبة بذكائها وزهدها بالمال حتى ساق اليها القدر فتى طياشاً هام بها وردته ناصحة متأبية كذأبها فأرداها قتيلاً مأسوفاً عليها ، وقد مضى على اختفاء الجارم الاثيم عشر سنوات ، فاعترف للقضاة بانه قتلها غدراً وثأراً لهواه الخائب ، واستطاع ان يخفي جثتها تحت شجرة في بستان لأبيه باعه بعد هذا الحادث » .

وقد وصف المطربة الشابة بانها كانت ربا العود ذات شعر ذهبي متهدل ، وعينين مكحولتين جارحتين فيهما سحر واباء ، كانت تغني من جوارحها غناء فيه ألم دفين كأنه صدى القدر المكتوب ، فأحبتها حباً ليس فيه امل وأعماني الغرام حتى استطعت ذات مساء ان أتقرب اليها بالخطبة وكانت وحيدة في بيتها المطل على بستاننا فردتني رداً افقدني الوعي والصواب ولم اشعر الا بيديّ تنقضان على عنقها ، وسرعان ما لففت الجثة والقيتها تحت العتمة من الشرفة الى البستان ، ثم انسللت اليه وحفرت لها حفرة عميقة كبيرة متهدلة الغصون، فواريتها التراب وكنت إذ ذاك لا اشعر بفظاعة الجريمة بل احس الراحة الكبرى.

القاهرة **وداد سكاكيني**